ابن الفارض والحب الإلهي

تأليف

الدكتور محمد مصطفى حلمي

مدرس الفلسفة والتصوف

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

اعتراف بالجميل

ليس أدعى إلى الغبطة ، وأبعث على البهجة ، ولا أحق بأن تكون له الصدارة بين صفحات هذا الكتاب ، من الاعتراف بالجميل لمن أسداه ، وتسجيل الفضل لمن أهداه : فقد تفضلت حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة قوت القلوب هانم الدمرداشية فأفاضت على هذا الكتاب الكثير من فضلها ، وأضفت على مؤلفه الوارف من ظلها ؛ وما فتئت تخصه بعنايتها ، وتتعهده بمعونتها ، حتى هيأت له الطبع ، ومهدت له سبيل الإذاعة والنشر ، فى هذا الوقت الذى عز فيه الورق ، ولم يصبح فيه طبع الكتب أمراً ميسورا ، وليس من شك فى أن مما يشرف هـذا الكتاب أن يكون إخراجه ثمرة من ثمرات هذه الدوحة التي غرستها يد هذه السيدة الجليلة ، فنشرت ظلالها ، وآتت أكلها فى مختلف نواحي حياتنا الاجتماعية والثقافية .

والمؤلف إذ يسجل هذا الفضل ، ويحاول أن يحمده لصاحبته ، أو يشكرها عليه ، لا يجد من آيات الحمد ما يوافيه ، ولا من عبارات الشكر ما يوافيه ، ويعتقد أن فى مجرد الاعتراف بالجميل أصدق تقدير ، وأبلغ تعبير !

محمد مصطفى حلمى

الاهداء

الى ولدى مؤنس :

أنت يا بنى موضع الحب من قلبى ، ومعقد الرجاء فى نفسى ، محا الله بنور أنسك ظلمة وحشتى ، وغمر بفيض حبك كل مهجتى . وفى هذا الكتاب نفحات صادقة من الحب ، ولمعات مشرقة من الأنس ، أهديها اليك ، آية على حبى لك ، وأنسى بك ، وأملى فيك ؟

والدك

محمد مصطفى علمى

تقـــدمة

بقلم

حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل

الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

إن بحوث التصوف وما تحتاج إليه من عناء وجهد ، ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التى يديرونها بينهم ، ومن إدراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك ، يعد فى الحقيقة أمرا خطيراً يفتقر إلى اطراح الهوى واستعمال التصفة والعدل فى الحكم ، ويتطلب أيضا أن يتنازل الباحث حينا عن بعض نظراته المادية ، ليتيسر له أن يعيش آونة فى هذا الجو الروحى .

ولقد لقيت المتصوفة من قديم الدهر عنتا شديداً ، وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم ، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ ؛ ولقد اضطر ابن عربى لكى يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحا لديوانه (ترجمان الأشواق) يبين فيه مقاصد كلامه ومراميه ، ويظهر ما خفى من معانيه ، ويعين ما التبس منها ، لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذى أراد .

لذلك كان اغتباطى عظيما بإقدام الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمى ، على كتابته فى هذا الموضوع الشائك ، الذى يبحث فى « ابن الفارض » الصوفى المصرى ويدرس « ابن الفارض » الشاعر المصرى الذى فتن بجمال مصر واستهوته مغانيها وربوعها إذ يقول :

وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتهاها مشتهاها

وكان لجبل المقطم ووادى المستضعفين به من الأثر البالغ فى نفسه ما منحه بحق لقب « سلطان العاشقين » .

إن لابن الفارض بمكانته الظاهرة اللامعة بين المتصوفة ، بل هو يعد فى نظرنا الصوفى المصرى الأول بلا منازع ، كما يعد رأسا لشعراء الصوفية من العرب . وقد ظفر ديوانه بما لم

يظفر به ديوان آخر من تواتر الشراح والمفسرين ، وعنيت أجناس شتى من الأوربيين وغيرهم بنقل شعره إلى لغاتهم ، وما زال شعره إلى اليوم يتغناه الصوفيون ويتناشدونه فى حلقاتهم .

إن ابن الفارض لم يَسلَم — كما لم يسلم غيره من المتصوفة — من طعن الطاعن عليه ، وقد انبرى له الإمام ابن تيمية وأمعن فى نقده وتجريحه ، كما تصدى له كثير من الفقهاء يتهمونه بالكفر والزندقة ؛ ولكن واضع هذا الكتاب قد وفق فى كثير من الأمر إلى أن يكشف وجه الحق عن هذه الطعون التى وجهت إلى ابن الفارض ، وأن يخلق منها تمجيدا لهذا الصوفى ورفعا لشأنه .

إن إعجابى بالأستاذ المؤلف وتقديرى له يرجع العهد به إلى سنوات مضين منذ كان يعد هذه الرسالة الجامعية التى كان لى حظ الاشتراك فى نظرها ومناقشتها ، وكان الأستاذ موفق جد التوفيق فى تحليل موارد صوفية ابن الفارض التى طبعته بهذا الطابع الخاص ، كما ظهرت براعته واضحة فى بيان تأثير ابن عربى فى تلاميذه الذين تولوا شرح ديوان ابن الفارض ، فذهبوا فى تأويل ألفاظه الصوفية إلى مذهب شيخهم ابن عربى ، وخلطوا فى ذلك بين المذهبين وهم لا يشعرون .

وفى هذا الكتاب ، الذى يعد الأول من نوعه فى العربية ، كثير من التحقيقات التى تقتضى صاحبها من الصبر والجلد قدراً لا يستهان به ، ومن أبرعها ما صنع فى تحقيق مولد ابن الفارض الذى اضطربت فيه الروايات اضطرابا ؛ ومنها تحقيقه رواية المقرى فى (نفح الطيب) ، التى تنص أن ابن عربى طلب إلى ابن الفارض أن يضع شرحا لتائيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بقوله : « كتابك الفتوحات المكية شرح لها » وقد بيّن الأستاذ ما فى تلك الرواية من استحالة مادية بطريقة تحمل على الإعجاب .

ونحن إذ نهنئ المؤلف بما وفق إليه فى هذا الكتاب ، نرجو أن يديم الله توفيقه ، وأن يكون قدوة للشباب الجامعى فى البحث عن أعلام الثقافة المصرية العربية .

مصطفى عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التصوف ناحية طريفة ممتعة من نواحى الحياة الإسلامية ؛ ولكنه على مافيه من طرافة وما يثيره فى الشعور والعقل من متاع ، لم يعن به الباحثون من الشرقيين العناية التى تكفى للكشف عن شخصياته ومذاهبه ، وعما كان لهذه الشخصيات والمذاهب من آثار قيمة فى حياة الفكر والروح . وهو لما يمتاز به من هذه الطرافة ، وما يثيره فى النفس من هذا المتاع ، قد أقبل عليه كثير من المستشرقين ، فدرسوه دراسة علمية منظمة كان من ثمراتها كثير من البحوث الخصبة القيمة ، على نحو ما فعل الأساتذة : ماسينيون فى فرنسا ، ونيكلسون فى انجلترة ، ونللينو ودى ماتيو فى إيطاليا ، وكثير غيرهم فى بلاد أوربا وأمريكا المختلفة : فأنت إذا أردت أن تعرف شيئاً عن نشأة التصوف الإسلامى وتطوره ، والعوامل التى أثرت فيه ، وأعانت على تغذيته وتنميته ، أو عن حياة رجاله العامة والخاصة ، وما كان لهم من آثار فى توجيه الحياة الدينية والروحية والعقلية والاجتماعية ، فلن توفق من ذلك إلى كثير مما كتب فى لغتنا العربية ، واصطنع فيه كاتبه المنهج العلمى الصحيح ؛ ولعل كل ما تستطيع أن تبلغه هو هذه الكتب التى تحدثك عن طبقات الصوفية حديثاً هو أدنى ما يكون إلى حديث الأساطير الخيالية منه الى حديث الحقائق الواقعية ، وهذه الأسفار والدواوين التى خلفها أصحابها من الصوفية أو المتصوفة ، وهذه الشروح التى وضعها الشراح على هذه الأسفار والدواوين ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، وسلكوا من مسالك التفسير والتأويل ما كان يزيد أحياناً الأمر تعقيداً ، والمعنى غموضاً وخفاء ، وما كان أحرانا ، والتصوف جزء من تراثنا الإسلامى ، أن نكون أبر به ، وأكثر اقبالا من غيرنا عليه .

على أننى لا أرمى من وراء هذا إلى إنكار ما بذله بعض الباحثين عندنا من جهود موفقة

فى الكشف عن بعض نواحى الحياة الصوفية الإسلامية ، ولا إلى الغض مما لبحوثهم من قيمة علمية : فقد عكف الصديق الفاضل والزميل المحترم الاستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى على دراسة الصوفى المسلم الكبير محيي الدين بن عربى ، فبسط فلسفته الصوفية ، وحللها إلى عناصرها تحليلا علميا قيما ، وذلك فى بحثه المكتوب بالإنجليزية وعنوانه (فلسفة محيي الدين ابن عربى الصوفية) ، فضلا عما له من بحوث أخرى نشرت بالعربية فى كل من (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول) و (مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول) ، وكذلك عنى الأستاذ الدكتور زكى مبارك بالإبانة عن أثر التصوف فى الأدب والأخلاق . ولكن عناية هذين الباحثين ببعض نواحى التصوف الإسلامى وشخصياته ، ليست شيئاً بالقياس إلى ماظفرت به الحياة العقلية أوالأدبية أو السياسية فى الإسلام من جهد الباحثين ، ووفرة مؤلفاتهم فيها .

ولعل السبب الذى يرجع إليه إهمال الباحثين منا لدراسة التصوف الإسلامى ، هو اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهذيان ، وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذى لا معنى له ولا غناء فيه . ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأى حدود القصد والإعتدال فى أحكامهم ، وأنعموا النظر فيما أثر عن الصوفية من أذواق وأحوال ، وما خلفوه من آثار وأقوال ، ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمى الصحيح ، لغيروا رأيهم فى التصوف والصوفية ، ولوجدوا أن المواجيد والأذواق ، والرموز والإشارات التى حفلت بها الآثار الصوفية منظومة ومنثورة ، إنما هى تعبيرات عن حياة روحية راقية ، وحالات نفسية رائعة ، ومذاهب منطوية على كثير من المبادىء والمعانى ليست أقل قيمة من كثير من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسسة على النظر العقلى والإستدلال المنطقى ، ولتبينوا أن للعاطفة منطقاً ، كما أن للعقل منطقاً ، وأن منطق العاطفة قد ينتهى بالخاضع له إلى نتائج لها طرافتها وجدتها اللتين لا تقلان عن طرافة النتائج التى ينتهى إليها منطق العقل وجدتها .

وإذا كانت تلك هى الحال التى انتهت إليها دراسة التصوف الإسلامى عندنا ، وكان لابد لنا من أن نعنى بهذه الدراسة عنايتنا بغيرها من الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية ، فقد اتخذت من عمر بن الفارض — وهو واحد من هؤلاء الصوفية الذين أذعنوا لسلطان العاطفة — موضوعاً لهذا البحث الذى حاولت فيه أن أكشف عن سيرة الرجل وحياته العامة والخاصة ، وما يتصل بهذه من أحوال وبتلك من أحداث ، وعن حقيقة حبه الذى قضى حياته

هاتفاً به مرتلا لأنشودته ، وعما عسى أن يكون فى هـذا الحب من المعانى الروحية والمثل الأخلاقية والمنازع الفلسفية ، لا سيما أن حب هـذا الشاعر الصوفى مسألة من أدق المسائل وأشدها غموضاً وتعقيداً ، اختلف الناس حولها فى زمان الشاعر نفسه ، واختلفوا فيها بعد زمانه ، وما يزالون مختلفين فيهـا حتى الآن : يقرأ بعضهم ديوانه على أن الشاعر يتغنى فيه حباً إنسانيا يدور حول معشوقة آدمية ، ويقرأه بعضهم الآخر على أن ناظمه إنما يهتف فيه بالحب الإلـهى ، ويرمى من وراء رموزه وإشاراته وكناياته إلى المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية . ومن هنا جاء بحثى فى ثلاثة أقسام : —

(١) تناولت فى القسم الأول ترجمة ابن الفارض وأطوار حياته ، وروح العصر الذى عاش فيه ، ومكانه فى بيئته ومبلغ تأثره بعصره . وحللت فيـه حياته الصوفية وما اختلف عليها من الأحوال النفسية والأذواق الروحية ، وما أخذ به نفسه من رياضات ومجاهدات كانت سبيله إلى تصفية نفسه وتنقية قلبه على الوجه الذى مكنه من التحقق بالوصول إلى محبوبه الأسمى وشعوره بالفناء فيه والاتحاد به . وبينت فى هذا القسم أيضاً آثاره التى يتألف منها ديوانه الضئيل الجليل معاً ، وما أثاره هذا الديوان من حركات الشرح والتأويل فى البيئات الصوفية الإسلامية ، ومن حركات الترجمة والنقل والتعليق فى البيئات العلمية الأوروبية ، وما انتهى إليه أمر هذا الديوان من حكم على صاحبه بالإلحاد والخروج على تعاليم الـكتاب والسنة تارة ، ومن دفاع عنه وتبرئة له مما نسب إليه من حلول واتحاد وغيرهما من المذاهب التى تنافى روح الإسلام وتخالف تعاليمه تارة أخرى .

(٢) وعرضت فى القسم الثانى لحب ابن الفارض وطبيعته ، والـكشف عما إذا كان هذا الحب كله حبا إلـهياً ، أم حباً إنسانياً ، أم هو مزاج من الحبين . وهنا انتهيت إلى أنه لا يبعد أن يكون الشاعر الصوفى قد بدأ حياته العاطفيـة إنساناً كغيره من الناس ، يحب مثلهم الجمال الإنسانى ، ثم أصابه ما يصيب العشاق فى بعض الأحيان من إخفاق وخيبة أمل ، فإذا هو يتسامى بحبه عن الجمال الإنسانى المعين إلى الجمال الإلـهى المطلق حيث وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التى لا تعدلها سعادة . ثم بينت بعد هذا الأطوار النفسية والصوفية التى تعاقبت على نفس الشاعر فى حبه الإلـهى ، وكيف كان فى أول عهده بالحياة الروحية ما يكونه عادة كل سالك فى بداية الطريق من تعلق بنفسه ، وخضوع لسلطان

حسه ، واندفاع مع إشباع الرغبات والحظوظ ؛ ثم كيف أخذ نفسه بالمجاهدة والرياضة حتى خلص شيئاً فشيئاً من سلطان النفس ونير المادة ، وحتى زهد فى كل شىء إلا فى شىء واحد هو المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية ، التى انتهى من إقباله عليها وإعراضه عما سواها إلى شعوره بالفناء فيها وشهوده الوحدة الذاتية التى تنتفى معها التفرقة بين المحب والمحبوبة .

(٣) وعكفت فى القسم الثالث على دراسة حب شاعرنا من الناحية الفلسفية : فحاولت أن أحلله إلى عناصره الصوفية التى تنطوى على بعض المعانى الميتافيزيقية والأخلاقية وما إلى ذلك مما انتهيت فيه إلى تقرير أن الأذواق والمواجيد الروحية ، والرياضات والمجاهدات الصوفية ، على الرغم مما تتصف به من صفات الذاتية أو الشخصية ، يمكن أن تشتمل فى قرارها على بعض النزعات الفلسفية والمثل الأخلاقية : فقد أبنت فى هذا القسم عن علاقة الحب والمعرفة عند ابن الفارض ، واجتهدت فى أن أظهر كيف أن لهذا الشاعر نظرية ، أو بعبارة أدق نظرة فى المعرفة ، كما عرضت الصور المختلفة لمذهبه فى الوحدة : وحدة المحب والمحبوبة ، وحدة الله والعالم وهما هاتان الوحدتان اللتان أطلقت عليهما اسم « وحدة الشهود » تمييزاً لهما عما يعرف عند الفلاسفة وبعض الصوفية باسم « وحدة الوجود » (وذلك لأن ابن الفارض لم يكن يدرك هذه الوحدة إلا فى حال الشهود فقط) ؛ ووحدة الخلق كما تمثلت منذ الأزل فى الحقيقة المحمدية التى يسميها ابن الفارض « بالقطب » وبغير القطب من الأسماء التى سنعرض لها فى موضعها من هذا البحث ، ووحدة الأديان التى تتضمن أرقى مبادىء الحب والتعاطف والإخاء والمساواة . وأخذت نفسى فى هذا كله بإظهار ما عسى أن يكون من ابن الفارض موافقاً لتعاليم الكتاب والسنة أو مخالفاً لها ، وماذا كان فى كل ما صوره الشاعر فى ديوانه عامة ، وفى قصيدتيه الحافلتين (التائية الكبرى) و (الخمرية) خاصة ، من تأثر ببعض العناصر الأجنبية ، ومن سبق إلى تقرير بعض الأنظار الفلسفية التى اهتدى إليها من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين الذين اصطنعوا العقل بقدر ما اصطنع هو الذوق .

وقد عقبت على هذه الأقسام الثلاثة بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث فى حياة ابن الفارض وأذواقه وآثاره ومذهبه فى الحب ، كما عرضت للمصادر التى يمكن أن يكون قد استقى منها بعض عناصر مذهبه ، ولما عسى أن يكون لسيرة ومذهب كسيرة ابن الفارض ومذهبه من قيمة وأثر فى الحياة من الناحيتين الروحية والعملية .

تلك إلمامة موجزة بأهم العناصر التى تتألف منها أقسام هذا البحث الذى تقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ونوقشت فيه بين يدى الجمهور أمام لجنة الحكم المؤلفة من حضرات أصحاب المعالى والعزة الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، والأستاذ أحمد أمين بك ، والدكتور طه حسين بك ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والمرحوم الدكتور پول كراوس ، فى يوم السبت ٢ مارس سنة ١٩٤٠ ، وحصلت به على درجة الدكتوراه فى الآداب (قسم الفلسفة) مع مرتبة الشرف . ولعلى بهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب علينا نحو هذه الناحية المغمورة من نواحى حياتنا المصرية الإسلامية وهى الناحية الروحية ، لا سيما أن ابن الفارض بحكم صوفيته من ناحية ، وبحكم مولده ونشأته وإقامته ووفاته فى مصر من ناحية أخرى ، يعد بحق ممثلا للتصوف الإسلامى المصرى فى طور من أطواره : فالكشف عن حياته ، وعن العوامل التى أعانت على تكوين شخصيته الصوفية ، وتأليف مذهبه فى الحب الإلهى ، إنما هو فى الحقيقة كشف عن ناحية من نواحى حياتنا المصرية فى أحد عصورها ، وعن الطابع الذى طبعت به هذه الحياة فى ذلك العصر . وإذا كنت أتمنى شيئاً فهو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تتضافر فيه جهود الشباب الجامعيين عندنا على هذه الناحية القيمة المغمورة معاً من نواحى تراثنا الإسلامى ، فيوسعونها درساً وبحثاً على وجوه تكشف عما تقوم عليه ، وترمى إليه من معانى الحق والخير والجمال .

ولا يسعنى بعد هذا كله إلا أن أسجل هنا فخوراً ما غمرنى به حضرة صاحب المعالى أستاذى الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا من عطف جميل ، وتشجيع نبيل ، وإرشاد سديد ، مذ وقع اختيارى على موضوع هذا البحث ، وطوال السنوات التى اشتغلت به فيها حتى أتممته تحت إشرافه ، فكان ثمرة من ثمرات علمه وفضله ، ونفحة من نفحات قلبه وعقله . ولا يسعنى أيضاً إلا أن أسجل معتزاً ما أفاضه على حضرة صاحب العزة أستاذى الجليل الدكتور طه حسين بك من عناية بى ، ورعاية لى ، وحدب على ، مما كان من غير شك عوناً صادقاً على الاستمرار فى هذا البحث وإنجازه وتقديمه للمناقشة . هذا إلى ما تركه فى نفسى حضرة صاحب السعادة أستاذى الجليل الدكتور منصور فهمى باشا من أثر جميل ، وما قدمه من تشجيع محمود عند ما كنت فى مستهل عهدى بهذا البحث .

وإن أنس لا أنسى ما كان للمغفور له احمد زكى باشا على من فضل الإرشاد إلى كثير من المراجع الخطية والفوتوغرافية التى اشتملت عليها خزانة كتبه الخاصة : فإلى روحه الكريم أبعث بأصدق التحيات ، وعلى جدثه الطاهر استمطر أطيب الرحمات . وكذلك الأستاذان لويس ماسينيون والمرحوم كارلو نللينو ، فقد أرشدنى كل منهما إلى كثير من مراجع البحث التى كان لها أثر كبير فى تجلية بعض الغوامض ، وتحقيق بعض المسائل ، فإليهما أصدق شكرى ، وعلى ثانيهما أخلص تحية وأطيب رحمة . ولا يفوتنى أن أقدم أخص عبارات الشكر والثناء إلى الدكتور أبى العلا عفيفى على ما كان له من أثر محمود فى تحقيق كثير من المسائل الدقيقة التى تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع هذا البحث ، وما أبداه من ملاحظات سديدة على ما أطلعته عليه من فصوله . ومن واجبى بعد هذا كله أن أسجل ما كان للصديق الكريم والأخ العزيز كامل محمد على بك من فضل فى تهيئة الظروف التى أعانت على إخراج هذا الكتاب ونشره ، فله منى أصدق الشكر وأطيب الحمد .

أما الذين أعانونى على قراءة المراجع ، وكتابة البحث ، فكانوا منى العين التى تقرأ ، واليد التى تكتب ، فأظنهم فى غير حاجة إلى أن أحمد لهم صنيعهم ، أو أن أشكرهم على ما بذلوا من جهد ، واحتملوا من مشقة وعناء ، والله وحده قادر على أن يجزى الكل عنى خير الجزاء .

محمد مصطفى حلمى

القاهرة فى { ١٧ محرم ١٣٦٤
أول يناير ١٩٤٥ }

إِنَّ الغَـرَامَ هُوَ ٱلْحَيَـاةُ فَمُتْ بِهِ ... صَبًّا فَحَقُّكَ أَنْ تَمُوتَ وَتُعْـذرا

قُلْ لِلَّذِينَ تَقَـدَّمُوا قَبْلِي وَمَنْ ... بَعْدِي وَمَنْ أَضْحَى لِأَشْجَانِي يَرَى

عَنِّي خُذُوا ، وَبِيَ ٱقْتَدُوا وَلِيَ ٱسْمَعُوا ... وَتَحَدَّثُوا بِصَـبَابَتِي بَيْنَ ٱلْوَرَى

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ ٱلْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا ... سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ ٱلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى

وَأَبَاحَ طَرْفِي نَظْـرَةً أَمَّلْتُهَا ... فَغَـدَوْتُ مَعْرُوفًا وَكُنْتُ مُنَـكَّرَا

فَدُهِشْتُ بَيْنَ جَمَـالِهِ وَجَلَالِهِ ... وَغَدَا لِسَانُ ٱلْحَالِ عَنِّيَ مُخْـبِرَا

فَأَدِرْ لِحَاظَكَ فِي مَحَاسِنِ وَجْهِـهِ ... تَلْقَى جَمِيعَ ٱلْحُسْنِ فِيهِ مُصَـوَّرَا

لَوْ أَنَّ كُلَّ ٱلْحُسْنِ يَكْمُلُ صُورَةً ... وَرَآهُ كَانَ مُهَلِّلًا وَمُكَبِّرَا

« ابن الفارض »

الكتاب الأول

ابن الفارض وتصوفه

تمهيد

فى مصادر ترجمة ابن الفارض وحياته الصوفية

١ — ترجم الكثيرون من المتقدمين والمتأخرين لابن الفارض ؛ ولكن المتأمل فى كثرة ما كتب عن سيرة الشاعر وحياته الصوفية ، يلاحظ أن أوفى ترجمة هى هذه التى كتبها علىّ سبط ابن الفارض وقدمها بين يدى ديوان جدّه ، والتى نجدها فى مستهل النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣١٩ (أدب) . وقد أثبتت هذه الترجمة فى أول نسخة الديوان التى طبعها بمرسيليا سنة ١٨٥٣ م رشيد بن غالب الدحداح اللبنانى ، والتى أعيد طبعها بمصر فى مطبعة بولاق سنة ١٢٨٩ هـ ، وفى المطبعة الشَّرَفية سنة ١٣٠٦ هـ ، وفى المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ ، وفى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٩ هـ . وتُذْكر هذه الترجمة فى النسخة الخطية وفى النسخ المطبوعة المشار إليها بعنوان (ديباجة الديوان) : فى هذه الديباجة يحدثنا علىّ سبط ابن الفارض عن مولد جدّه ونشأته ، وعن سلوكه وسياحته ، وعن إقامته ورحلته ، وهو إنما يستند فى كل ما يورده إلى ما أفضى به إليه ولد الشاعر المسمى كمال الدين محمد ، إذ كان هذا الأخير ، على نحو ما تحدثنا به الديباجة ، ألصق الناس بأبيه وألزمهم له وأعرفهم بحاله ؛ صحبه إبّان إقامته بمصر ، ورافقه فى رحلته إلى الحجاز ، ووقف على كثير مما كان يختلف على نفسه من أحوال ومواجيد . ومن هنا كانت هذه الترجمة أطول وأوفى ما كتب عن حياة ابن الفارض ، على الرغم مما يوجد من نقص فى النسخ المطبوعة إذا قيس بعضها إلى النسخة الخطية الأصلية .

على أن ترجمة سبط ابن الفارض لجدّه ، وإن كانت كما قلنا أطول المصادر عن حياة الشاعر ، وأوفاها بتصوير ما كان عليه من الأحوال ، وما عرض له من الأحلام ، وما تجلى

عليه من المكاشفات ، وأُجرِى على يديه من الكرامات ، فإنها قد انطوت على كثير من الإسراف والمبالغة فى الصورة التى تعطيها عن ابن الفارض ، وفيما تفيض به من عبارات المدح والثناء والإشادة بذكره وخلقه وشكله ، الأمر الذى ينبغى معه — ونحن ندرس ابن الفارض دراسة علمية — أن نقف من هذا كله ، أو من بعضه على أقل تقدير ، موقف الحيطة والحذر والتردد فى قبوله على ما هو عليه ، وأن نفطن إلى الحقيقة الواقعة وهى أن سبط ابن الفارض وولده الذى قصّ على هذا السبط أخبار أبيه ، لا بد وأن يكون كل منهما قد خضع لسلطان العصبية ، فإذا كلاهما يتعاونان على إخراج هذه الصورة التى تتبيّن منها أن الشاعر إنما كان زاهداً ورعاً تقياً سالكاً طريق الله منصرفاً عن الدنيا منذ نشأته حتى وفاته . فإذا أضفنا إلى هذه العصبية عاملا آخر من شأنه أن يحملنا على التشكيك فيما يرويه السبط نقلا عن الإبن ، وهو جهلنا بشخصية كل منهما ، وقصور ما لدينا من المعلومات عنهما وعن مبلغ أمانتهما ودقتهما ، رأينا إلى أى حدٍّ ينبغى أن نحتاط عندما نريد أن نتخذ من ديباجة الديوان مصدراً من مصادر ترجمة ابن الفارض . وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ذكره البقاعى ، من أنه لا ينبغى الاغترار بما قاله سبط الشاعر فى ديباجة الديوان ، ومن أنه رجل مجهول لا تقبل روايته لا سيما أنه يشهد لجدّه ، ولا سيما إذا كانت شهادته مخالفة لشهادة الأئمة بكفره[١] . وإذا كان البقاعى ، على قرب عهده من عصر ابن الفارض ، قد شك فى شخصية علىّ سبط الشاعر ، وعدّه رجلا مجهولا ، فمن حقنا نحن ، وقد بعد العهد بيننا وبين العصر الذى عاش فيه شاعرنا من ناحية ، ولم تتهيأ لنا بعد المراجع الكافية التى تدلنا فى وضوح واطمئنان على شخصية علىّ هذا من ناحية أخرى ، أن نكون أكثر شكا وأشد تحفظاً فى تصديق كل ما يرويه سبط ابن الفارض عن جده ؛ أو من حقنا على الأقل أن ندقق فى كل ما يقوله المترجم ونحققه تحقيقاً علمياً بحيث نتمكن من استخلاص الحقيقة التى إن لم تكن تامة قاطعة ، فليس أقل من أن تكون مقاربة ملائمة للواقع إلى حدٍّ يصح معه الاطمئنان : فلعل كل ما نعرفه حتى الآن من أمر سبط ابن الفارض ومترجمه هو ما وقفنا عليه فى ثنايا ترجمته لجده التى نحن بصددها ، حيث يتحدث عن نفسه بما يفيد أنه كان شيخاً لمسجد[٢] ، وأنه عاش فى القرن الثامن للهجرة[٣] .

---

(١) تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى ومعه تحذير العباد ... (نسخة فوتوغرافية بالخزانة الزكية ص ٧٩).

(٢) ديباجة الديوان طبع المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠هـ ص ١٠ . — (يلاحظ أن كل إشارة إلى ديباجة الديوان فيما يلى من هذا البحث سيكون الرجوع فيها إلى شرح ديوان ابن الفارض ، طبع المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ ، ولهذا سنكتفى بذكر لفظ ديباجة الديوان) .

(٣) نفس المرجع ص ٤ .

٢ — على أن هناك ترجمة أخرى لابن الفارض كتبت فى العصر الذى عاش فيه الشاعر ، وهى الترجمة التى كتبها ابن خلكان فى الجزء الأول من (وفيات الأعيان) . ونحن نعلم فيما نعلم من تاريخ القرن السابع للهجرة أن ابن خلكان كان معاصراً لابن الفارض ، كما نعلم من (ديباجة الديوان) أن ولد ابن الفارض المسمى كمال الدين محمد سمع أباه ، وقد سأله ابن خلكان عن تاريخ مولده ، يجيب بما أجاب به زكىّ الدين عبد العظيم المنذرى المحدّث ، وهو أن مولده كان بالقاهرة المحروسة آخر الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٧ هـ[1] . ومعنى هذا أن ابن خلكان قد عرف ابن الفارض والتقى به وتحدث إليه ووقف على كثير أو قليل من أحواله وسيرته وأخلاقه . وطبيعى أن يكون ما ترجم به ابن خلكان لابن الفارض أدنى إلى الحق وأبعد عن التعصب له ، وذلك بحكم معاصرته له من ناحية ، وكونه لا تربطه به صلة قرابة أو نسب من ناحية أخرى . وإذا كان ذلك كذلك فقد تبين إذن أن الموازنة بين ترجمة ابن الفارض التى كتبها سبطه ، وبين الترجمة التى كتبها ابن خلكان ، من شأنها أن تعيننا على استخلاص ما يمكن أن يكون صورة صحيحة صادقة لحياة ابن الفارض ، لا سيما أن ابن خلكان كتب ترجمته فى نفس العصر الذى عاش ومات فيه ابن الفارض ، فى حين أن سبط الشاعر كتب ترجمته لجدّه بعد وفاة هذا الأخير بقرن من الزمان . ومهما يكن من القيمة التاريخية لما ترجم به ابن خلكان لابن الفارض ، فإن ترجمة الوفيات لا تصلح لأن تكون مقياساً واسع النطاق يقاس به كل ما ورد فى ترجمة الديباجة : ذلك بأن فى هذا المصدر الأخير أموراً ذكرت عن الشاعر ولم يذكرها ابن خلكان ؛ ومن هنا كان لا بد لنا من أن نعتمد فى تحقيق هذه الأمور على مصادر تاريخية وصوفية أخرى من شأنها أن تكشف لنا عن روح العصر الذى عاش فيه المترجَم له ، وعن التيارات الفكرية والشعورية والدينية التى كانت سائدة وقتئذ ، وعن الأثر الذى تركته هذه التيارات كلها أو بعضها فى حياة ابن الفارض العامة والخاصة ، وفى مذهبه الصوفى .

٣ — وثمة ترجمة ثالثة هى هذه التى أثبتها أبو الفلاح ابن العماد فى كتابه (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) . وهى تمتاز من ناحية بأنها أطول من ترجمة الوفيات وأقصر من ترجمة الديباجة ، وتمتاز من ناحية أخرى بأنها تزيد على ما تشترك فيه مع الترجمتين الآنفتى الذكر أموراً أغفلها أو لم يقف عليها كل من سبط ابن الفارض وابن خلكان . وليس من شك فى أن لما يزيده صاحب الشذرات قيمة تاريخية وأدبية وصوفية لها أثرها

(١) ديباجة الديوان ص ١٣ .

فى الإبانة عن بعض النواحى فى حياة ابن الفارض ومذهبه فى الحب ، وعن الجدل الذى قام بين رجال الدين حول الرجل وتنازعهم أمر عقيدته بينهم ، حتى لقد كفّره بعضهم ، وبرّأه بعضهم الآخر .

٤ — ونحن نلاحظ أن لترجمة الشذرات مصدراً آخر استمدت منه فى أكثر مواطنها : هذا المصدر هو كتاب (الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية) لعبد الرؤوف المناوى[1] . ويدل على هذا أن صاحب الشذرات فى سياق ترجمته لابن الفارض وغير ابن الفارض من الصوفية كابن عربى مثلا يذكر فى نهاية بعض الفقرات هذه العبارة : « انتهى ما ذكره المناوى » .

٥ — وإلى جانب هذه الترجمات التى ذكرنا ، توجد ترجمة رابعة كتبها ابن الألوسى البغدادى فى كتابه (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) ، واستقى معلوماته فيها من ابن خلكان صاحب (وفيات الأعيان) ، وابن العماد صاحب (شذرات الذهب) ، والمناوى صاحب (الكواكب الدرية) ، والأدفوى صاحب (الطالع السعيد) ، والقوصى صاحب (الوحيد) : فقيمة هذه الترجمة ثانوية لأن صاحبها لم يكد يأتى بشىء جديد انفرد به هو من سائر المترجمين . ولكنها مع ذلك تعيننا على تحقيق بعض المسائل ، لا سيما ما يتعلق منها برأى الفقهاء فى ابن الفارض .

وهكذا نرى أن بين أيدينا مصادر أربعة عن حياة ابن الفارض ومذهبه ، يكمل بعضها بعضاً ، ويحقق بعضها ما أورده البعض الآخر ، على وجه نستخلص معه صورة واضحة فى أكثر نواحيها غامضة فى بعضها لما كان عليه شاعرنا سواء فى نشأته وتربيته ، أم فى إقامته ورحلته ، أم فى سلوكه وسياحته .

٦ — هذا فيما يتعلق بحياة الرجل من حيث هى حياة تبدأ بمولده وتنتهى بوفاته . أما فيما يتعلق بحياته بعد مماته إن صح هذا التعبير ، وبفهم مذهبه الصوفى وما ينطوى عليه هذا المذهب من منازع فلسفية ، وموقف رجال الدين منه ، وتعصب بعضهم له ، وتعصب بعضهم الآخر عليه ، فكل أولئك أشياء ، وإن كان بعض الترجمات التى أشرنا إليها آنفاً ، قد أومأ إليها أو صرح بها ، إلاّ أنّ هناك مصادر أخرى قد أفاضت فى هذه المسائل : وحسبنا أن نذكرها فيما يلى :

---

(١) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٩ (تاريخ) . — طبع هذا الكتاب بالقاهرة وظهر منه الجزء الأول سنة ١٣٥٧ هـ = سنة ١٩٣٨ م .